اليسار العربيّ والتباسات النقد الذاتيّ

◻ الطاهر لبيب

وجهة القول، بدءًا، يسارُ الفكر... لا فكرُ اليسار إجمالاً، ولا فكرُه السياسيُّ تخصيصًا. قد يكون في هذا ما يخفِّف من لبسٍ سائد: يساعد على تخليص محصِّلة الفكر من صور الفشل في السياسة. هذا التخليص صعب، شائك، قد يؤخذ عليه اصطناعُ الفصل. وإذا كان ذلك، فالمأخذ يقابله مأخذُ الفكر على نفسه إتلافَ ماضيه في مقابر السياسة. لا أحد يدّعي فصلاً بين الفكريّ والسياسيّ، ولكنّ اللبس قائم في ما قد يكون من مطابقة ـ في الزمن والمنحى ـ بين التجربة الفكريّة والتجربة السياسيّة. هذه المطابقة هي، في الغالب، من وضع السياسيين، للقول، ضمنًا، بأنّ الفكر لم يكن متقدّمًا على تجاربهم، ولو لم تقم تجاربُهم على فكر.

إنّ القصد من تخفيف اللبس هو أن يتّضح ما تراكم وامتدّ من يسار الفكر، وراء منعطفات فكر اليسار و«تطبيقاته» السياسيّة. لا يتضمّن هذا، إذًا، أيَّ تقييم لتجربةٍ سياسيّة؛ بل قد نكون أكثر دفاعًا من أصحابها عن ماضي فشلها! القصد هو دفاعٌ عن فكرٍ غطّاه احتواءٌ سياسيّ، ولربما استبطانٌ من أهله لتبعيّةٍ «نضاليّة.» ولو ذكرنا من هؤلاء بعضَ اللامعين، فكرًا، لأُعجبنا، قطعًا، بنضالهم، ولعجبنا، في الوقت نفسه، لخضوع فكرهم. ولقد تعلّمنا أنّ من هذا الخضوع ما كان «انضباطًا تنظيميًا،» ووراءه فكرٌ كامنٌ ينتظر سراحًا: سراحًا يسمّى «نقدًا ذاتيًا.»

❖ ❖ ❖

بعد هذا، ما اليسار ومن هم مفكّروه؟

اليسار يسارات؛ فلا تعريف له إلاّ في ما تداخلَ من حدوده الدنيا. وإذا كان لهذه الحدود أن تلتقي في كلمة، فالكلمة ـ المفهوم هي «التجاوز»: إنها من أكثر الكلمات شمولاً وكثافةً. لها ملحقاتُها طبعًا: أن تكون الحركة تقدّمًا، وأن لا تحمل وعيًا زائفًا، وأن تكون غيرَ ذلك مما أَلِفتْ قولَه نصوصُ اليسار. وإذا ذهبنا بالاستعارة بعيدًا، قُلنا: إذا كان في الواقع القائم «جنّةٌ،» فوجهة اليسار جنّةٌ أفضل. الجنّة الأولى ـ مهما كان طِيبُها ـ هي من صُنع القائمين فيها، الخائفين عليها؛ والثانية من صُنع أهل الممكن الذي لا يكتمل. وللجنّة الفضلى أسماءٌ كثيرة وسبلٌ متوازية أو متقاطعة، أكثرُها جذبًا وسرابًا تسمّى إيتيوبيا. ويبدو ـ وهذه مفارقة ـ أنّ سبلاً ومساربَ كثيرةً امّحتْ، وبقيت الايتوبيا يترجرج سرابُها، صورًا وحنينًا. السبب، في ما أرى، أنّ للإيتوبيا، وللسراب أيضًا، وجهًا تراجيديًا له ملامحُه، منذ بداية الأساطير. قد تتغيّر الملامح (منذ ٤٨ العربيّ الفلسطينيّ، مثلاً) ولكنّ المشهد يبقى تراجيديًا، له، في الفكر، مَنْ يضع نصَّه وإخراجَه ويوزّع أدوارَه، متّخذًا فيه دورَ الملقِّن، بالضرورة، ودورَ البطل أحيانًا كثيرة.

والتجاوز ليس إجراءً. هو رؤية للعالم. وإذا نُظر إلى يسار الفكر من وجهة الرؤية (لا من وجهة الأصول والانتماء)، أمكن اقتراحُ تصنيفاتٍ لمفكّريه، قد تتقاطع مع المألوف أو تخرج عنه. ولقد سبق أن اقترحتُ، في مَواطنَ أخرى، تصنيفًا أستحضره، منظورًا إليه، هذه المرّة، في علاقته بالتجربة السياسيّة:

١ ـ المثقف الملحمي: عرفتْه الستينيّاتُ يبني المشاريعَ ويطرحها ويناضل من أجلها وقد يذهب ضحيّتَها. كان يفعل ذلك إيمانًا منه بأنّ مشاريعه قابلةٌ للإنجاز «حتمًا.» ولأنّ مشاريعه كانت أوسعَ من الواقع، كان عليه أن يحلم. هذا سُمّي إيتوبيا: إيتوبيا أصبحتْ، عند الخلَف، مجرّدَ وهم أو قريبًا منه. لم تعد تمسّكًا بتفاؤل الإيديولوجيا، أيْ بتحويل شؤم الواقع إلى سؤالٍ يتفاءل. انتهت ملحمته، ومعها بطولاتُها الجماعيّة. انتقلت «العضويّة» الشهيرة إلى أكثر الفضاءات «تقليديّة.» اليوم يتقلّب غرامشي في قبره: لقد أصبح مثقفُه التقليديّ أكثر عضويّةً من مثقفه العضويّ!

٢ ـ المثقف البدائلي: أصوله ملحميّة، ولم يسلّم بأنّ الملحمة انتهت. واصل، على أنقاضها، طرحَ بدائله، ولو مع تشذيبها و«فكّ الارتباط» بين أطراف معادلاتها المستحيلة. حافظ، إجمالاً، على رؤيته لمنحى التاريخ، وعلى النواة الصلبة في النظريّة والمقاربة. طرح الممكنُ عليه بدائلَه، وأرغمه على التنازل عن بعض «المسلَّمات» القديمة أو تهجيرها إلى مستويات جديدة: إلى العولمة، مثلاً، هذه التي تسيّب فيها فكرُ الكثيرين. ولكنّها بقيتْ عنده مرحلةً من مراحل النظام الرأسماليّ الباحثِ عن تجاوز أزمته.

٣ ـ المثقف التراجيدي: هو صاحب المعادلات المستحيلة، لا هو قادرٌ على حلّها ولا هو قابلٌ للتخلّي عنها. هو، كالبطل الإشكاليّ عند لوكاتش، يصرّ على

مواجهة المستحيل، وهو يعلم أنه مستحيل. التجاوز، عنده، يمكن أن يكون نحو المستحيل: مستحيل اللحظة، إذ لا مستحيل، تاريخيًا، في المطلق. اليوم، يلوذ بصمت المتأمّل مشهدًا تتحوّل فيه بطولةُ المستحيل إلى عبثيّة الممكن.

٤ ـ المثقف المقاول: صنعتْه الورشةُ «الليبيراليّة،» أو صُنِع لها. أُسندتْ إليه مهامُّ وأوصافٌ، من أبرزها المستشارُ والخبير. وإذا كان يُذكر ضمن يسار الفكر، فلأنّ من المقاولين مَن كان منه. ولقد تبيّن أنّ المقاولة (السياسيّة، تخصيصًا) تكون أعتى ما تكون عليه إذا كانت آتيةً من يساريّةٍ قديمة: مَن كان يبدو شرسًا ضدّ «تحريفيّة» اليسار أصبح شرسًا ضدّ «تحريف» اليمين. ومهما كان الرأيُ في المقاول، فهو الأوسعُ حضورًا في كلّ المستويات والمجالات والقنوات، والأكثرُ تأثيرًا في تسيير القائم وفي مواجهة «التجاوزات.» ثم إنّ له قدرةً «بِزْنسيّة» على اللحاق، خارج فضائه، بمبادرات «المجتمع المدنيّ» ومؤسّساته، وعلى تحويلها إلى مقاولةٍ تَصْحبها نجوميّةٌ، ولو إلى حين.

❖ ❖ ❖

غاب الملحميّ يجرّ صورَ مرجعيّاته وحركاته الاجتماعيّة المتراجعة. ولجأ البدائليّ بمقولاته إلى ما فوق أو إلى ما تحت المجتمع، الذي لم يعد «وحدةَ تحليل.» وبقي التراجيديّ شاهدًا على شقاء العالم. وظهر المقاول يُفتَى، فيفتي في كلّ شيء؛ فلنتركْه جانبًا. النماذج الثلاثة الأخرى هي كلّها من مرحلة الستينيّات العربيّة، نشوءًا على الأقلّ. وهي، في علاقتها بالتجربة السياسيّة، تؤكّد، اليوم وفي الجملة، ظاهرتين:

الأولى أنّ الذين شاع فكرُهم، وأثّر، وامتدّ زمنًا، هم أولئك الذين كانت لهم مكانةٌ فكريّةٌ «تنظيريّة» عُرفوا بها أكثر ممّا عُرفوا بمكانتهم في حركاتهم وتنظيماتهم السياسيّة. لهذا استقلّت كتاباتُ الكثير منهم، في أذهان الناس، عن انتماءاتهم السياسيّة، وإنْ بقيتْ في خانة اليسار. وإذا اكتفينا بمجال الفكر التحليليّ أمكن، ارتجالاً وعلى سبيل المثال لا أكثر، ذكرُ أسماء من نوع مهدي عامل وحسين مروّة وياسين الحافظ وصادق جلال العظم ومحمود أمين العالم وسمير أمين وعبد الله العرْوي وعبد اللطيف اللُّعَبي، وآخرين، فلسطينيين وعراقيين وسوريين، من الجبهتين الشعبيّة والديمقراطيّة... وكلّ هؤلاء وأمثالهم، مضافًا إليهم المبدعون ـ وأوّلُهم، وأغلبُهم، الشعراء ـ ذهبتْ أو نُسيتْ سياساتُهم وبقي فكرُهم. لا مفارقة في هذا: فقوّة الفكر هي في استمراره خارج السياق الذي أنتجه.

الظاهرة الثانية هي أنّ مفكّري اليسار أقلُّ ميلاً إلى «النقد الذاتيّ» من سياسييه: فكرُهم نقديّ، ولكنه أقلُّ اعتذارًا عن ماضيه. ومهما يكن، فالفرق واضح، في حالاتٍ كثيرة، بين ما في المذكّرات السياسيّة من «نقدٍ ذاتيّ» يحاول التأطيرَ الفكريّ، ما بعديًا؛ وبين السِّيَر الذاتيّة الفكريّة المستوعِبة لتجربتها السياسيّة، داخل مسارها الفكريّ وصيرورته.

في الظاهرتين ما يدعو إلى ترك المطابقة بين تجربتين، مهما كان الارتباطُ بينهما، تزامنًا ومنحًى. هناك اختلاف، في الطبيعة، بينهما. شاءت ظروفُ التجربة السياسيّة أن يُصدر يسارُها أحكامًا عليها بالفشل. قد نعترض على قسوة الأحكام، نحن الخارجين عن هذه التجربة، لأننا قد نرى للتجربة «الفاشلة» انعكاساتِ نجاحٍ في ما استمرّ من مطلب التغيير واستبطانه.

ومهما كان الحكم على التجارب السياسيّة فقد كان فيها، أو على هامشها، أو موازاةً لها، فكرٌ لا مبرِّرَ، نظريًا ولا منهجيًا، لأن تُسحبَ هذه الأحكامُ عليه. ذلك أنه إذا نُظر إلى هذا الفكر من جهة المعرفة، لا من منظور الفكر السياسيّ والتجربة السياسيّة، فإنّ ما ظهر منه في لحظته، وما بقي منه، واسعُ التأثير إلى اليوم. بعضُه لم يكن مسبوقًا في إبداعه، وبعضُه لم يأت، بعدَه، ما يرتقي إليه. لِنتذكّرْ، من الستينيّات وأوائل السبعينيّات، نصوصًا مؤسِّسةً في الشعر والرواية، وأعمالاً كبرى في المسرح والسينما، وفي الموسيقى والفن التشكيليّ، إضافةً إلى ما سبق ذكرُه من عيّنة البحث والتحليل. إنها، إلى اليوم، معالمُ كبرى، وهي ما كان لها أن تكون لولا حركةُ اليسار وما ارتبط بها من طلائعيّةٍ عالميّةٍ وعربيّة. هذا لا يعني أن كلَّ مَن أبدع في مرحلة اليسار كان منه، ولكنه يعني أنّ تلك المرحلة ـ مهما كان فشلُ السياسة فيها ـ كانت محفِّزةً ليسارها ولغيره.

مثقّفو تلك المرحلة، شئنا أمْ أبينا، هم كبارُ مثقفي العرب في تاريخ الفكر العربيّ المعاصر: أبدعوا في صياغة أحلامٍ لم يستفقْ واقعُ العرب لتحقيقها. لقد تراجعت المرجعيّاتُ الفكريّةُ الكبرى، وتقلّصتْ أو غابت مقولاتُها ومفاهيمُها وصيغُ تعبيرها، وتراجعتْ معها الحركاتُ التغييريّة والاحتجاجيّة التي كانت تحملها. ولكنّ كلّ هذا ترك خيوطًا له في النسيج الفكريّ العربيّ، في التمثّلات وفي اللّغة، بعضُها امتدّ إلى وريثٍ غير شرعيّ، إلى الخطاب الرسميّ العربيّ.

❖ ❖ ❖

أما وقد اتّضح التمييزُ، فليكن الوصل: وصلٌ حدودُه النظرُ إلى اليسار إجمالاً، ناقدًا ذاته. وخلاصةُ هذا الوصل، في شكلها الخام، أنّ النقد الذاتيّ أقربُ ما يكون إلى التبرّؤ من الذات في ثقافة الجَلْد الذاتيّ، وأنّ كثيرًا منه فاقدٌ للشرعيّة الفكريّة، ولربّما الأخلاقيّة: بدءًا، هذا اليسار العربيّ، الذي كان (أي الذي نصرّفه في الماضي)، هو حديثُ عهدٍ، ولحظتُه قصيرة. قد يعود به بعضُ العرب إلى أوائل أجدادهم، ولكنّ المواربة، مهما كانت حيلتُها، يصاحبها شؤمُ اليسار في حقول الدلالات القديمة: إنه شؤمُ الخروج من

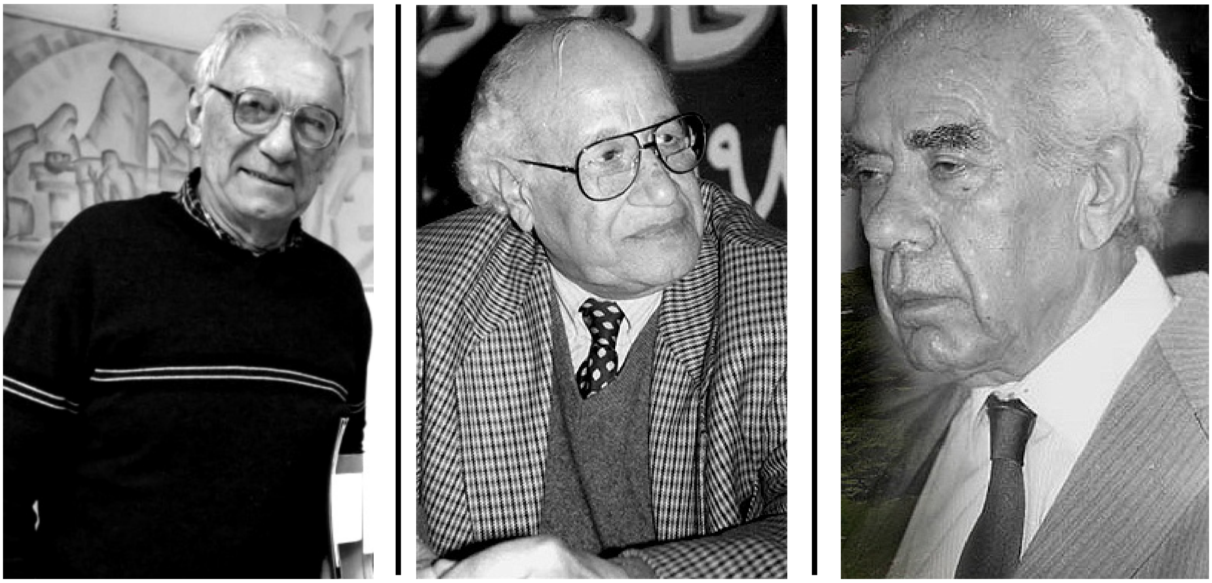

حسين مروّة، محمود أمين العالم، صادق جلال العظم.

وعلى؛ شـؤمُ الفـتنة؛ وقبل ذلك شـؤمُ مَن أُوتيَ الكتابَ بشِماله. للجغرافيا شـؤمُـها أيضًـا: شِمال الجزيرة نفسُـه بحرٌ وهلاك! والشِّمال، في كل هذا، «يسار.»

معلومٌ ما تناثر وتباعد، عبر العصور، من بؤر التنوير الفكريّ والاحـتـجـاج الاجـتـمـاعيّ السياسيّ. ولكنّ اليسار العربيّ، في اصطلاح اليـوم، لا امـتـدادَ له في التـاريخ. قـد تكون إرهاصـاتُه في مـا تداخل بين النـهـضـة والاسـتـعـمـار، ولكنّ الدفعَ كـان بعد النّكبة، والقـوّةَ بعـد النكسـة أو الهـزيمة. ٦٧ منعطفٌ حـاسم. اسـتـخلاصٌ أوّل: نشـأ اليسارُ العربيّ من أزمـة، وأزمـةُ النشـوء هذه تحـوّلتْ سـريعًـا، خلال عقدين على الأكثر، إلى أزمة وجود. هذا هو عُـمـر اليـسـار العـربيّ الذي يُنتـقـد ويُنتـقـد ذاتيًا.

قد يتهـوّر البعضُ في المقارنة بيسارات ٍأخرى. لنضربْ مـثلاً يسارَ فرنسـا: وراءه «الأنوارُ» كلّها، وهو ابنُ الثـورة الفـرنسـيّـة (التي أكلتْ منه مـا أكلتْ). بدأ توپوغـرافـيًـا: عنى اليـسـارُ، أوّلَ مـا عنى، جلوسَ الليـبـيـراليين أو «الحـرّيين» يسـارَ المجلس، في حين جلس المحافظون جهة اليمين. وكان لا بدّ من مرور قرن من الزّمن، تقريبًا، قبل أن تتـحـوّل المقـابلةُ إلى يمين ويسار، أيْ قـبل أن يكتسب اليسارُ معناه المتداول اليوم. هذا المدى الزمنيّ أتاح للفكر أن ينبني وأن يتراكم، وللحركات أن تمتدّ وأن تتصارع، ولمستويات الواقع أن تتمفصل.

لا مـقـارنة إذًا: فـلا عـمـرُ اليـسـار العـربيّ امـتـدّ إلى توالي مـراحله وتراكم تجاربه، ولا الزمنُ الاجتمـاعيّ العربيّ اتّسع لنضج حركته. اسـتـخلاصٌ ثانٍ قد يكون ضدّ التيّار الغالب: ما أنجزه اليسارُ العربيّ، في حدود العمر الذي افـتكّه من قـبـضـة الزمن العـربيّ، كـان أرقى مـا وصل إليـه الفكرُ والفكرُ السـيـاسـيّ العـربيّ في تـاريخـه الحـديث والمعـاصـر. هذا الإنجاز الكثيف، المضغوطُ في ضيق العمر والزمن، ليس أقلَّ قيمةً ولا أثرًا ممّا أنجز آخرون، في ظروفٍ أخرى.

لهذا يبدو غريبًا تنكيلُ بعض اليسار العربيّ بماضيهم. ويبدو أغربَ منه اعتذارُهم عن وعيٍ سابق: وعيِ مرحلةٍ بنى البعضُ فيها البدائلَ، وناضلوا واضطُهدوا وقُتلوا من أجلها. ممَّ يعتذرون؟ من واقعٍ لم يتحمّلْهم؟ من جدليّةٍ زيّفها أنّ اليمينُ كان أجهزةً لا فكر لها يجادله اليسارُ فيه؟ نعم، ليت اليمينَ العـربيَّ أنتج فكرًا! يقـول بعضُ اليـسـار النـاقـدِ ذاتَه إنه لم يفـهـم الواقعَ الموضـوعيّ: هذا صـحـيح. ولكنْ هل سـاد في مرحلته، في الكون كلِّه إذّاك، غيرُ ما كان له من آليّات الفهم والتحليل والتفسير؟ صـحيح أنه اجتزأ ولفّق ووفّق، كما يقال، وبنى على ذلك وأوّلَ؛ ولكنّ هذا لم يكن من خاصيّات بنية عقله: إذا كـان مرجعُه مـاركس، فـهو يَعْلم أنّ العالم يكتشف، اليومَ، أنّ مـا نُشر من أعمال ماركس في حياته أقلُّ ممّا نُشر بعد موته، وأنّ منها مـا لم يكن مكتملاً أو كان مبعثرًا ومشوَّشًا (كان على أنجلز قضاءُ عشر سنواتٍ لوضع **رأس المال** في صـورةٍ «مكتملةٍ قدر الإمكان» كما يقـول، إذ لم يُكمِلْ منه مـاركس إلاّ الجزء الأول). هـذا يعني أنّ الدوغمائيّة لم تقم على معـرفةٍ كاملةٍ بأعمال مـاركس، وإنما على ترميمها وانتقائها وتوجيه قراءتها، منذ سـتـالين. اليوم فـقط، وفي عـودةٍ إلى مـاركس، يُنتظر أن تَصـدر، بالألمانيّة،

أعمالُ ماركس كاملةً، في طبعةٍ علميّةٍ محقّقة، على ما يبدو. فلننتظرْ أيّ ماركس سيَخرج منها! هذا وضعُ فكر ماركس في موطنه وفي لغته، فما بالك به عندنا، مارّاً، قبل أربعين سنة، في طبعةِ «التقدّم» السوفياتية ومقتطفاتها؟!

هذه الأسئلة هي للقول بأنّ للنقد الذاتيّ حدودَ مرحلته: أن تبنيَ جديدًا أو أن تعيد بناءً أو أن تستخلص الدروس، كما يقال، فهذا من صلب التجاوز، من تعريف اليسار، لكنّه ليس فرصةً للاعتذار عن لحظةٍ مؤسِّسةٍ كان فيها الجهدُ والإصرارُ، وكان لها، ككلّ لحظةٍ، أخطاؤها. اختصارًا، ليس المطلوب تطهيرَ لحظةٍ ماضية، وإنما المطلوبُ الدفاعُ عن استثنائيّتها وعمّا بذل جيلُها من أجلها.

للنقد الذاتيّ حدودُ مرحلته، وله أيضًا حدودُ شرعيّته: هناك من تغيّرتْ أفكارُه ومواقعُه، متحرّكًا داخل اليسار؛ وهذا ملمحُ حياةٍ وتطوّر. ولكنّ كُثرًا من قدامى اليسار نقدوا يسارَهم من مواقعَ لم تعد لها صلةٌ باليسار ولا بتخومه. النقد، في هذه الحالة، تبريرٌ للانزياح ولتغيير الموقع. وهو لذلك لا يُقنع، وقلّما يرتقي إلى ما ينتقده من فكرٍ أو تجربة.

❖ ❖ ❖

أخيرًا ماذا بقي من اليسار العربيّ؟

لا ندري على وجه الدقّة. ما نعلمه أنّ قلّةً، متحرّكةً أو ثابتةً حيث كانت، لا يزال التجاوزُ حاملَ فكرها وحاملَ بدائلها ومواجهاتها. ما نعلمه أيضًا أنّ أغلب مَنْ ساروا باليسار أو سار بهم غيّروا مساراتهم إلى ضفافٍ أخرى، وتوزّعوا في فضاءاتٍ أوسعُ مقاولاتها ثلاثٌ: السياسةُ التي لها قدرةُ الاحتواء بالإغراء واستيعاب الخبرةِ مسلوبةً من فكرها؛ والدينُ الذي عرف هجرةً إليه، هجرةً بلا عودة؛ ثم الإعلامُ الذي يجيد، لِحاجته، صنعَ «مثقفين» عابرين في ثقافةٍ عابرة.

الحيرة، إذًا، هي هنا والآن، لا في أمرٍ ما مضى: هي في المنعطفات والتواء المسارات، إلى حدٍّ ما كان متوقّعًا، بل ما كان متصوّرًا، قبل ربع قرن. ليُجبْ قدامى اليسار عن سؤالٍ أوّل: أين كانوا وأين أصبحوا؟ مرتبطًا بسؤال أهمّ: هل، حقًّا، أخذتهم حيويّةُ فكرهم إلى حيث هم، أمْ أخذتهم رياحُ أخرى؟

في الإجابة، مهما كانت وكانت ذرائعُها، ما يجعل من نقد اليسار لحاضره أولويّةً وضرورةً أخلاقيّة. الماضي أُنجز، وخاب ظنُّه، ومضى.

بيروت

الطاهر لبيب

كاتب من تونس. له: **سوسيولوجيا الثقافة**، و**سوسيولوجيا الغزل العربيّ**. عام ١٩٨٨ ترأس «المنظّمة العربيّة للترجمة.»